شرح قصيدة "ويح قومي" للشيخ آدم عبدالله الإلوري

الدكتورة/ هاجر خامس هارون (أمة الله)
Email:hudalummah@yahoo.co.uk
محاضرة بقسم اللغة العربية بجامعة القلم كتسينا ، نيجيريا ، كلية العلوم الإنسانية ، قسم اللغات الإفريقية

ملخص البحث:

ناقش هذا البحث شرح قصيدة "ويح قومي " للشيخ آدم عبد الله الإلوري، وقد بدأ البحث بالتعريف بالشاعر، وموقفه في الشعر العربي، ثم قدم نماذج من أشعاره في موضوعات متنوعة. أشار البحث إلى نبذة تاريخية عن حياته العلمية وخدمته للدين الإسلام واللغة العربية . ثم تحدث عن مقتطفات من النماذج الشعرية وأغراضها الواردة في أشعاره. وفي الأخير ركز على شرح قصيدته "ويح قومي " التي حاول فيها الشيخ إصلاح أحوال قومه السيّئة وعاداتهم الذميمة الموروثة.أما البحث فمقسم إلى ثلاثة مباحث، الأول: نبذة تاريخية وجيزة عن حياة الشاعر العلمية وموقفه في الشعر العربي، الثاني : نماذج من أشعار الشيخ آدم الإلوري وأغراضها، بينما يأتي الثالث : بعرض شرح ودراسة قصيدة "ويح قومي" ، ثم الخاتمة والهوامش.

مفهوم الأدب العربي:

هو كل ما أنتجه شعراؤها ونثارها من التعبير الجميل ودوّنوه باللغة العربية، من الأعمال الفنية التي تصور لنا حياتهم البدوية والحضرية، و تعكس في مرآتها ظروفهم الاجتماعية والسياسية والدينية والثقافية، بما يشير إلى مدى حضور العمل الأدبي خارج الحزام العربي، ومنه جمهورية "نيجيريا" ذاتها، وتضم هذه الأعمال الخطابة، والرسالة، والقصة، والمسرحية، وسائر الأنواع الأدبية.

وإذا نظرنا تاريخ الأدب العربي النيجيري نرى أن الأدباء في نيجيريا هم الدعاة مما جعل همهم لتعليم اللغة العربية لتفقهم في الدين ونشره، رغم ظروفهم الزمني لكنهم بذلوا جهدهم في تطور الأدب العربي النيجيري مما أدى إلى وجود مواد ذات الصلة بالأدب شعرا ونثرا يستحق الدراسة أدبية.[1]

ولذلك كان للشيخ الإلوري دور فعّال في انتاجات الأدب العربي النيجري رحمه الله تعالى.

المبحث الأول : نبذة تاريخية وجيزة عن حياة الشاعر العلمية وموقفه في الشعر العربي.

الشيخ آدم عبد الله الإلوري (1917م-1992م).

هو الشيخ آدم عبد الله الإلوري بن عبد الباقي حبيب الله بن عبدالله الإلوري. ولد عام 1971م في بيت علم وشرف إذ كان والده عبد الباقي واعظًا، نشأ وترعرع تحت رعاية والده عبد الله الذي ظلّ يُعلّمه الآداب الإسلامية السامية وبذلك ظهرت عليه سمات الجلال والوقار منذ صغره[2].

تعلم القرآن الكريم على يد والده، وحفظ كثير منه قبل أن يبلغ السابعة من عمره كما حفظ مجموع من الأحاديث النبوية والأشعار، ثم اتصل بالشيخ صالح في مدينة إبَادَن (1934م) وعلى يديه تلقى الكثير من العلوم الشرعية واللغوية ليتوجّه بعد ذلك إلى الشيخ عمر (1939م) وعليه قرأ كثيرًا من الكتب الأدبية، أما علوم البلاغة والعروض فأخذها عن شيخه آدم نمعجي الكنوي الذي عرف بثقافته اللغوية.

أنشأ مركزًا لتعليم اللغة العربية والعلوم الإسلامية في مدينة أَبِكُوتا عام 1953 م، ثم نقله إلى حي أغَيغِي في مدينة لاَجُوس، حيث أصبح مقصدًا لأبناء، المسلمين فتخرج فيه عدد من الطلاب الذين أنشأ بعضهم مراكز مشابهة في الدول المجاورة[3].

انتاجه الشعري واللغوي:

له ديوان الإلوري، وأورد له كتاب (الأدب الإسلامي في ديوان الإلوري) عددًا من القصائد والمقطوعات الشعرية. ويدور شعره حول الرثاء، الذي اختص به شيوخه وأصحاب الفضل عليه، وله شعر في الرد على الخصوم مزجه بالفخر الذاتي، وكتب في التوسل والتضرع إلى الله تعالى.اتسمت لغته بالطواعية مع ميلها الشديد إلى التقريرية، وخياله محدود.والتزم الوزن والقافية، كما تتفاوت مقدرته على سبك اللغة وتطويع مفرداتها.[4]

للشيخ آدم الإلوررري عدد من المؤلفات صدرت في أغَيغِي منها: (مصباح الدراسات الأدبية في الديار النيجيرية)، و(لباب الأدب) بأقسامه الثلاثة (الشعر والكتابة والخطابة)، و(المقطوعات الأدبية)، و(تعريف الشعر العربي)، و(تقريب اللغة العربية)، و(تقريب النحو)، و(شرح عيون اللاميات)، و(دروس علم البلاغة).[5]

خدمته للدين الإسلام واللغة العربية

أصبح مركز الشيخ آدم الإلوري مركزًا للتعليم العربي الإسلامي بأغيغي في ولاية لاَجُوس، تخرج على يديه جمع غفير من أساتذة اللغة العربية والدراسات الإسلامية . حصل على وسام الدولة في العلوم والفنون من جمهورية مصر العربية، كما منح وسام جمهورية نيجيريا الفيدرالية، توفي عام1992 م. وله مؤلفات عديدة في تاريخ الإسلام، كما صنف كتبا تعليمية عديدة، وله مشاركات أدبية وقصائد عربية جيدة. ومن مؤلفات: "الإسلام في نيجيريا" و"عثمان بن فودي"، و"موجز تاريخ نيجيريا"، و"الإسلام وتقاليد الجاهلية"، و"نطام التعليم العربي وتاريخه"، و"الإسلام اليوم وغدا"، و"مصباح الدراسات الأدبية في ديار نيجيريا[6]."

ظلّت برامج المركز العربي الإسلامي الذي أسسه الشيخ تقوم بدورها الفعال في نشر الثقافة الإسلامية واللغة العربية في كافة ربوع نيجيريا، فقد كان الإلوري معتقداً مفاخراً باللغة العربية في بلاد سيطرت عليها الإنجليزية ، وفي هذا يقول (كفى العرب شرفاً أنَّهم أقرب الناس انتساباً لرسول الله وكفاهم فخراً أنَّ لهجتهم أقرب لسانا لكتاب الله وكفاهم تكاثراً أنَّ كل من تكلم بالعربية صار عربياً) غير أن استبعاده للإنجليزية في مناهج مدرسته عُدَّ حاجزاً لطموح طلابه الخريجين في المشاركة الحياتية والوظيفية العامة في بلاد لغتها الأولى هي الإنجليزية وهو ما استدركه تربويون آخرون في البلاد، وعلى رأسهم الشيخ الأستاذ كمال الدين الأدبي الذي يُعَدُّ شيخ علماء مدينة إلُورِن وعلماً من أعلام التربية المعاصرين فيها[7].

لقد كتب الإلوري في السياسة والدين والدولة في الإسلام، والتقى بمنظمات إسلامية؛ منها جماعة الإخوان المسلمين في مصر، ومرشدها الإمام حسن البنا، وظلَّ يردد ذلك في مؤلفاته وسيرته الذاتية، إلا أنَّه لم يؤسس لفكره السياسي الإسلامي الذي كتب عنه وأفاض بنفس القدر الذي كتب فيه عنالثقافة الإسلامية،

وكان مركزه م**ركزاً تعليمياً عملاقاً تخرج فيه مئات الطلاب ، وصار أنموذجاً يحتذى به في التعليم والإرشاد والدعوة ، وكان الإلوري جريئاً في نهجه الإصلاحي لا يأبه بالمخاطر في سبيل إيصال رسالته الإرشادية، ونقده لما يخالف الأصول الشرعية من عادات وتقاليد، ومن أمثلة ذلك –أبيات التي أقوم بشرحها في هذه الدراسة الموجزة في حياة شيخنا الجليل رحمه الله – يقول فيها منكراً على بعض عادات وتقاليد قومه وعشيرته ، ومن الأبيات القصيدة ما يلي:

ليت قومي جهلوا معنى الحياة * وأساؤوا فيه حتماً وابتداء
هكذا قد جهلوا التواضع وبنوه * في سجود وانحناء
خلع نعل جعلوه واجباً لهم * مثل وصول للفناء
وانبطاح عند السلام * وبروك لهم عند اللقاء
في مقام الحق أوجبوا السكوت * وأباحوا الكذب والقول الهراء
وغروراً والدعاوى الكاذبة * صيروها مذهباً للعلماء
كل من خالفهم في هذه * وصفوه بالذي منه براء[8]

المبحث الثاني: نماذج من أشعار الشيخ آدم الإلوري وأغراضها.

كان للشيخ الإلوري رحمه الله أغراضا مختلفة في شعره ومعظمها تتجه اتجاها إسلاميا لأنه تعلّم العربية ليتفقه في الدين ويخدمه. وتنحصر الأغراض التي طرقها الشيخ الإلوري في الرثاء، والحنين، والزهد، والمدح والشعر الاجتماعي، والفخر، والشعر التعليمي، والوصف، والتصوف، والشكر والتأمل. وهذه الأغراض ذكرتها أساتذة المركز عند محاولتهم جمع هذه القصائد في مظان واحد خوفا من الضياع. وسأتحدث عن بعضها على سبيل المثال لا الحصر.

1- المدح :

ومن القصائد التي كتبها الشيخ في المدح قصيدته التي رحّب بها أمير إلورن الراحل ذي القرنين الغمبري؛ وذلك عند زيارته الأولى للمركز عام 1962م وهي تسعة أبيات على البحر الطويل منها:

بكل لساني بل بكل جوارحي أقول لكم أهلا وسهلا ومرحبا
أمولاي ذا القرنين يا بن محمد أمير إلورن طبت أصلا ومنصبا
ورثت لواء الدين من شيخ عالم مجدد دين الله في أرض إلوريا
وأجداده الأولى كذاك تقدموا بنشر كلام الله شرقا ومغربا

رحّب شيخ الإلوري بالأمير بكل إجلال وتكريم، وذكر محاسن الأمير وأجداده؛ من إرشاد الضالين إلى الهدى، وأخيرا استغفر للأمير مع اعتذاره أنه لا معصوم إلا من عصمه الله.

2- الفخر:

وفي أيام حفلة الشهادة بالمركز والمدارس التابعة للشيخ نظم قصيدته تشجيعا للطلبة المتخرجين، ليستعدوا عن جد في نشر اللغة العربية والدعوة الإسلامية في أرجاء البلاد، ويقول فيها:

استعدوا للنضال استعدوا للنضال
إيه يا أشبال علم الـ دين قد حان النضال[9]
اذهبوا في الأرض كالأبـ ـطال وامضوا لا تبالوا
علموا الناس علوما ليس يدريها الرجال
علموهم أنكم في العلـ م أقطاب جبال[10]

أرشد الشيخ طلابه الذين الخريجين بأن يحملوا لواء التعليم لنشر العلم في أرجاء البلاد من غير خوف ولا تردد.

3- **الزهد:**

من القصائد التي نظمها الشيخ الإلوري في الزهد، قصيدة عرضها على شيخه آدم نمعجي للتصحيح، وكانت من أوائل قصائده في عام 1941م، وتقع في أربعة عشرة بيتا على البحر الطويل منها ما يلي:

نعيمك في الدنيا نعـــيم محدد وعيــشك فـــيها عيش من سيفنـــــد
إذا كنت في الدنيا تروح وتغتدي وتســـــعى بأشـــتات المنى تتجـــدد
تذكر بأن الموت يطـــرأ فجأة على غـــرّة ما ليس عنـــدك موعد
دخلت إلى الدنيا بغـــير إرادة ستـــــرحل منها عـــندما لست تقصـد
نجيئ ونمضي واحدا بعد واحدا ومن قد مضى قد فات في الأرض يـوسد

يتحدث الشيخ في هذه القصيدة على العموم عن الزهد والعمل للآخرة دار البقاء، وأن الله سيبعث الخلق يوما وتجزى على أعمالهم، إما في النار أو في الجنّة، وحثّ الناس على الخير وحذّرهم عن الشرّ وتركه، وركّز الشيخ قصيدته حول التعاليم الإسلامية وفق الكتاب والسنة، رحمه الله رحمة واسعة.

4- الرثاء:

لليشخ الإلوري قصائد في الرثاء منها قصيدته التي رثى بها شيخه آدم نمعجي الكنوي الذي توفى عام 1944م في طريقه إلى الحج، نظمها الشيخ في ستة عشر بيت على البحر الوافر، يقول الشيخ رحمه الله فيها:

همومي هاجها نوم الحـمام وحزني عاق عـن أكل الطعام
فما أدري يميني من شـمالي على ما غار من أمر الحمام
لموت نمعجي يا أسف عليه ويا حزني وهــمي بالتـــزام
لقد مات الحكيم الفيلـــسوف بكل علــومه وفي المـــــرام
وما لي لا أنـــــوح ولا أرى على عقد المـــربي للأنـــام
سيبكي كل أهـــل العلم طرا على فقد الطـــوالع كل عـام

هذه القصيدة الميمية كانت تعبّر عن الحزن والتحسر لفقد بطل من أبطال الإسلام العزيز على الشيخ الإلوري، وهو الشيخ آدم نمعجي، ومن أفكار هذه القصيدة أنها تخبرنا في ثلاثة أبيات الأولى مدى ألم فقدان المرثي في نفس الشاعر بينما البيت الرابع إلى السابع يبين ما خسره العالم بوفاة الراحل، من الحكمة والعلوم الغزيرة وأنهم سيندمون عليه في المستقبل.[11]

المبحث الثالث: شرح قصيدة "ويح قومي" للشيخ آدم عبد الله الإلوري

النصّ:

ويح قومي جهلوا معنى الحيا وأسا ؤوا فيه ختما وابتداء
هكذا قد جهلوا التواضـــعا وبنوه في سجود للفـــناء
خلع نعل جعلوه واجـــبا لهمو قبل وصول للفـناء
وانبطاح لهم عند الســلام وبروك لهم عند اللقـــاء
في مقام الحق وجبوا لسكوت وأباحوا الكذب والقول الهراء
والغرور والدعاوي الكذبــة صيّروها مذهبا للعلمـــاء

علماء قومنا قد ابتلـــوا بطعام وشراب وكســـــاء
قطعت ألسنتهم عند الملوك أصبحوا طوعا عبيد الأمراء
كممت أفواههم بالصدقات فانبروا يمتدحون الأغنيـــاء
مع هذا يزعمون أنهـــم أفضل الخلق وريثو الأنبياء
كل من خالفهم في هـــذه وصفوه بالذي منه بـــراء
جعلوه كافرًا لديـــــنهم واستعدوا لقتال واعـــتداء
والتواضع الذي نعرفـــه مثل ما في العقل أو شرع السماء
بقبول الحق من كل أحـد واجتناب جرّ ثوب الخيلاء

فكرة عامة عن القصيدة:

نظم الشيخ قصيدة همزية على البحر الرّمل، حاول فبها إصلاح أحوال قومه السيئة وعاداتهم الذميمة الموروثة التي عدوها حياء وتواضعا، وانتقد الشيخ ما شاع في المجتمع اليورباوي والهوسا؛ من تقاليد الانبطاح وخلع الأخذية عند السلام على الكبار والأمراء وخرس العلماء عن التصريح بالحق عند الملوك الجائرين. ثم حاول الشيخ طعنهم في ذلك كله، وأفهمهم أن التواضع المطابق للشريعة هو قول الحق وقبوله. وأن الحياء والتواضع ليس إلا ما وافق الشريعة والعقل السليم.

اللغة:

ويح: كلمة ترحم وتوجع. وهي تعني "ويل" : (ويح له، ويحا له، ويحه) ؛ فالأولى مرفوعة على الابتداء، والثانية والثالثة منصوبتان على إضمار فعل تقديره : "ألزمه الله ويحا" وقد تأتي "ويح" كلمة مدح وتعجب.

التواضع: تواضع، تواضعا أي تذلل وتخاشع ، وهو ضد التكبر. ويأتي منه بمعنى الاتفاق وانخفاض كقولك: تواضع القوم على الأمر أي اتفقوا عليه، وتواضعت الأرض أي انخفضت.

سجود: من فعل سجد ثلاثي لازم، بمعنى خضع وانحنى أي وضع جبهته على الأرض تعبدًا ومنه قوله تعالى : (مِن أَهلِ الكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتلُونَ ءَايَتِ اللَّهِ وَهُم يَسجُدُونَ)[12]

وانحناء: انحنى فعل خماسي لازم متعد بحرف، بمعنى انعطف ، وإعوج انحنت أغصان الشجرة أي إعوجت ومالت. يقال اِنحنى أمامه إجلالاً واحترامًا.

خلع: أي نزعه.

نعل: النعل: الحذاء. وجمعه نِعال.

الفناء: الساحة في الدار أو جانبها, والجمع أفنية.

انبطاح: انبطح بمعنى إستلقى على وجهه ذليلاً.

بروك: برك الرجل أي :ألصق صدره بالأرض ولزم المكان مثل بروك الجمل.

الهراء: الكلام الكثير الفاسد لا نظام له. يقال رجل هُراء: إذا كان كثير الكلام هُذاءً.

الغرور: كل ما غرّ الإنسان من مال، أو جاه، أو شهوة أو إنسان، أو شيطان . ومنه قوله تعالى : وَغَرَّتكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمرُاللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الغَرُورُ)[13]

الدعاوى: يدعي الإصلاح ويأتي الفساد.

كممت: كمَّ غطّاه وستره ومنه كمّ البعير أي جعل على فيه الكمام.

فانبروا: انبرى له ليضع حدّا لاستهتاره.

نضال: أي االقتال.

الشرح الإجمالي للقصيدة:

يقول الشيخ:

ويح قومي جهلوا معنى الحيا وأسا ؤوا فيه ختما وابتداء
هكذا قد جـهلوا التواضـــعا وبنوه في سجود للفـــناء
خلع نعل جعلوه واجـــبا لهمو قبل وصول للفـناء
وانبطاح لهم عند الســلام وبروك لهم عند اللقـــاء

بدأ الشيخ في قصيدته بكلمة "ويح" التي تدل على الترحم والتوجع نحو قومه لما يقومون به من عادات سيّئة ورثوها من أجدادهم، وذكر الشيخ بأنهم جهلوا معنى التواضع بحيث ظنوا أن السجود والانحناء مع خلع الحذاء واجبا عند دخولهم لذي جاه أو سلطان، وانبطاح على الأرض عند التحية وبروكهم لهم عند اللقاء مثل بروك الجمل .

وقوله:

في مقام الحق وجبوا لسكوت وأباحوا الكذب والقول الهراء
والغرور والدعــاوي الكذبــة صيّروها مذهبا للعلمـــــاء

وقد ذمّ الشيخ هذه العادات التي لا تناسب مع الشريعة وادعاءات العلماء والاغترار بأنفسهم وعدم تصريح الحق أمام الملوك والاعتراف بالكذب في موضع الصدق ومدحهم للأغنياء طمعاً.

وقوله:

علماء قومنا قد ابتلـــوا بطعام وشراب وكســـاء
قطعت ألسنتهم عند الملوك أصبحوا طوعا عبيد الأمراء
كممت أفواههم بالصدقات فانبروا يمتدحون الأغنيــاء
مع هذا يزعمون أنهـــم أفضل الخلق وريثو الأنبياء
كل من خالفهم في هــذه وصفوه بالـذي منه بـــراء
جعــلوه كافرًا لديـــــنهم واستعدوا لقتال واعـــتداء

واهتم العلماء بملذات الدنيا؛ كإفراطهم في المأكل والمشرب والملبس، وعندما نالوا العطاء من الأمراء، أصبحوا عبيدا لهم، وغطوا وتركوا قول الحق وأصبحوا يمدحون الأغنياء، ومع هذا يرون أنفسهم أفضل الناس وأنهم علماء ورثة الأنبياء. وإذا خالفهم أحد استعدوا لقتاله وكفروه.

والتواضع الذي نعرفـــه مثل ما في العقل أو شرع السماء
بقبول الحق من كل أحـد واجتناب جر ثـــــوب الخيلاء

حاول الشيخ الإلوري منعهم من ذلك كله، وأفهمهم أن التواضع المطابق للشريعة هو قول الحق وقبوله، وأن الحياء هو ما ينقذ الإنسان من الفضيحة.

أثرت هذه القصيدة تأثيرا بالغا في نفوس تلاميذ الشيخ وغيرهم من المسلمين حتى هجروا تلك العادات الذميمة، وعرف طلابه بكلمة الحق أمام السلطان الجائر، والزهد فيما عند الناس، ولا يمتدحون الأغنياء والملوك للطمع ونيل من عطاياهم.

التعليق النقدي:

تتصف أبيات الإلوري بسهولة الألفاظ والتراكيب والرقة. وخالف الشيخ عادة الشعراء في نظم قصيدة إذ أنه لم يبدأ بالغزل كما كان عادة الشعراء حيث يبدأون به أولا ثم يدخلون في غرضهم الأساسي.

وكان الشيخ أشبه بزهير بن أبي سلمى الذي لا يمدح إنسان إلا بما فيه ولا يؤمن بمقولة: "أحسن الشعر أكذبه" ويبدو ذلك واضحا في رثاء شيخه ومدح أمير إلورن.

وفي هذه القصيدة أحسن الشيخ في اختيار البحر واختار البحر "**الرمّل**" كما أحسن وأجاد في اختيار القافية.

الخاتمة:

حاولت الباحثة أن تقوم بشرح قصيدة الشيخ "ويح قومي" لما فيها من معان لغوية وأدبية وقيم اجتماعية التي حاول الشيخ إصلاح قومه وزجرهم عما هو غير لائق بالشريعة الإسلامية.

وفي الختام لفت شخصية الشيخ الإلوري دورا فعالاً في تطور الشعر العربي في نيجيريا، فقد نظم الشعراء في مدحه وتقريظ كتبه ورثائه له بعد وفاته داخل البلاد وخارجها، وكان ذلك خيرا كثيرا للأدب العربي بصفة عامة والشعر العربي النيجيري بصفة خاصة.

ومن النتائج التي يمكن الإشار إليها:

1- وجود كلمات لغوية التي زادت للنص الشعري جمالا.
2- تناسق الألفاظ ذات معان لغوية وأدبية .
3- في النص أساليب لغوية نحوية وصرفية.

الهوامش والمراجع:

1- انظر أضواء على الأدب العربي القديم في نيجيريا، عبد الكريم عيسى الصارم.
2- الإلورن ، آدم عبدالله ، لمحات البلور في مشاهير علماء إلورن (القاهرة:مكتبة الآداب 1982م) ص/ 77
3- معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشرة والعشرين http://www.almoajam.org/poet_details.php?id=884
4- نفس المرجع (بتصرف)
5- المرجع نفسه
6- رحمة أحمد الحاج ومحمد جامع،الخصائص العامة في الشعر العربي في ولايتي هوسا ويوربا: نظرات مقارنة، مجلة التجديد مج 19، عدد37 (1437هـ-2015م) 111-147. ص / 130 ،(بتصرف)
7- مهدي ساتي، الداعية الشيخ آدم الإلوري، "حياته وأثره العلمية " دراسات دعوية، العدد 8- يوليو 2004م ص/ 199 (بتصرف)
8- مهدي ساتي ، نفس المرجع، ص/ 200
9- اسهامات الشيخ آدم عبدالله الإلوري في الشعر العربي في نيجيريا، http://www.academia.edu/11171158 (بتصرف)
10- نفس المرجع
11 - المرجع نفسه.
12 - آل عمران الأية : 113
13 - الحديد الأية : 14